

محاضرة على الهواء مباشرة
من دير القديس أنبا مقار ببرية شيهيت
بدءاً من الخميس ٢٢ أغسطس سنة ٢٠١٩م
عيد تذكّر صعود جسد السيدة العذراء إلى السماء

مراحل تطوّر وقت إقامة السرّ الإفخارستي بين التقليديين الشرقي والغربي

- ١ أولاً: إقامة السرّ الإفخارستي في غير أيام الصوم
- ١ في القرنين الأوّل والثاني للميلاد
- ٣ في القرون الثالث والرابع والخامس للميلاد
- ٥ إقامة الإفخارستيا في بعض مناطق الشرق المسيحي في يومي الأربعاء والجمعة
- ٦ إقامة الإفخارستيا اليومية في كل من الشرق والغرب
- ٧ خلال القرون من السابع إلى التاسع للميلاد
- ٨ في حدود القرن العاشر الميلادي فصاعداً

قبل أن أبدأ المحاضرة

أخشى ما أخشاه أن يتحوّل سرّ الإفخارستيا في كنيستنا وهو سرّ حضور الرّب بيننا وفيّنا، يتحوّل إلى مادة للتدريس والحوار الفكري. لأنّ [ما سلّم بالإيمان، لا ينبغي أن يُفحص بالحكمة البشرية، بل أن يُقبل بجزر الإيمان]^(١). إنّ فقداننا الغاية من إقامة السرّ الإفخارستي والتي هي سكنى المسيح فينا، نفقد الحياة نفسها. لأنّه إن كانت «لي الحياة هي المسيح» (فيلي ١: ٢١) فإنّ الإفخارستيا تحقق فينا هذه الغاية حين يقول الرّب: «من يأكلني يحيا بي» (يوحنا ٦: ٥٧).

اختلفوا كيفما شئتم الاختلاف، ولكن لا تختلفوا على هيبية ومحافة الكنيسة وجمال الرّب الساكن فيها، والقائم بنفسه بيننا كاهناً وذبيحاً في آن معاً على مذبحه المقدّس التّاطق السّمائي.

إنّ معيار صدق دعوة الرّاعي على أنّها من الله وليست من النّاس، تكمن في قول الرّب لموسى النّبي: «هذه تكون لك العلامة أي أرسلتك؛ حينما تُخرج الشّعب من مصر، تعبدون الله على هذا الجبل» (خروج ٣: ١٢). فعبادة الرّب هي علامة صدق الدّعوة، وهي العبادة التي يقول عنها الزمور: «اعبدوا الرّب بخشية وهلّلوا له برعدة» (زمور ١١: ٢). لأنّه «بيبتك تليق القداسة ياربُّ إلى طول الأيام» (زمور ٥: ٩٣).

فالكنيسة التي لا تقوى عليها أبواب الجحيم، ربما تقوى عليها العبادة التي بلا مخافة.

أولاً: إقامة السرّ الإفخارستي في غير أيام الصوم

في القرنين الأوّل والثاني للميلاد

عندما أسّس السيّد المسيح سرّ الإفخارستيا في ليلة العشاء الأخير، أوصى تلاميذه قائلاً لهم: «اصنعوا هذا

لذكرى»^(٢) ولكِنَّه لم يحدّد لهم، متى يقيمون هذا الاحتفال الإفخارستي لتتيمم هذه الذكرى؟

ففي حين يذكر سفر أعمال الرُّسُل أنه كانت هناك مواظبة على ”كسر الخبز“^(٣)، وهو الاسم القديم جدًّا لهذا السرِّ المقدَّس، إلَّا أنه لم يوضِّح لنا عدد مرَّات إقامته. أمَّا قوله بأنَّ جميع الذين آمنوا «كانوا كلَّ يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة». وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت، كانوا يتناولون الطَّعام بابتهاج وبسأطة قلب» (أعمال ٢:٤٦)، فقولُه «كلَّ يوم» يشير بالتأكيد إلى صلاة الهيكل اليهودي فقط.

لقد أُقيم السرِّ الإفخارستي في أوَّل كلِّ أسبوع، الذي هو يوم الأحد، أي يوم الرَّبِّ، لأنَّ السَّبْت هو اليوم السَّابع أو يوم الرَّاحة في نهاية الأسبوع. وهو ما يذكره سفر أعمال الرُّسُل الذي يقول: «وفي أوَّل الأسبوع إذ كان التَّلاميذ مجتمعين ليكسروا خبزاً... إلخ» (أعمال ٢٠:٧). كما نعرف أيضاً من الرِّسالة الأولى للقديس بولس الرُّسول إلى أهل كورنثوس (١ كورنثوس ١١:١٧-إلخ) أنَّ الاجتماع الإفخارستي في أصوله المبكِّرة جدًّا، كان يقام في المساء، ولكن بدون أن توضِّح الرِّسالة في نصِّها اليوناني واللاتيني مساء أي يوم تقصد. أمَّا النَّص السَّرياني لها فيُسمِّي مساء هذا اليوم ”يوم الرَّبِّ“^(٤). ولقد ورد تعبير «في كلِّ أوَّل أسبوع» في نفس هذه الرِّسالة^(٥). بالإضافة إلى تعبير «يوم الرَّبِّ» الذي ورد في سفر الرؤيا (رؤيا ١:١٠). وفي عصر الآباء الرُّسوليين، يتكرَّر ذكر يوم الأحد كيوم وحيد للاحتفال بالإفخارستيا^(٦).

وإن جئنا إلى النَّصف الأوَّل من القرن الثَّاني الميلادي، نعرف من رسالة بليبي الصَّغير (٦١-١١٣م) إلى الإمبراطور تراجان سنة ١١٢م، أن إقامة الإفخارستيا كانت تتمُّ ليلاً وتنتهي قبل الفجر^(٧)، في اليوم المدعو يوم الشَّمس كما يذكر يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م)^(٨)، والذي هو يوم الأحد.

وفي النَّصف الثَّاني من القرن الثَّاني الميلادي، يتأكَّد لدينا استمرار اجتماع المؤمنين معاً ليلة يوم الأحد لتتيمم الذكرى الإفخارستية، أي ذكرى حضور الرَّبِّ القائم من بين الأموات بين خاصته، حضوراً حقيقياً على المذبح المقدَّس، وهو ما نجده على سبيل المثال في غير موضع من كتابات العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)^(٩). والذي يذكر أن إقامة السرِّ الإفخارستي يوم الأحد يكون في اللَّيل، ويعلِّل ذلك بقوله:

[إنَّ الأسرار تُقام في أغلب الأوقات ليلاً، إشارة إلى مناسبة انطلاق النَّفس من الجسد التي تحدُّث ليلاً]

(المتفرَّقات ٢٢:٤).

إذاً ففي القرنين الأوَّل والثَّاني للميلاد، تركَّز الاحتفال بالإفخارستيا تقريباً - ولاسيَّما في الشَّرْق - في يوم الأحد دون سواه من أيام الأسبوع. ولكن لم يكن الأمر بهذه البساطة المطلقة، وبهذا الاتفاق العام. لأنه لم تكن نظرة كلِّ المسيحيين من أصل أُهمي إلى السَّبْت، كرمز قد عتق وشاخ، بل إننا نلاحظ من قول للعلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) أنه في الكنيسة الغربيَّة، وكنائس شمال إفريقيا، كانت تقام الصَّلوات في بعض الكنائس في يوم السَّبْت^(١٠). ذلك لأنَّ التَّحول من السَّبْت إلى الأحد لم يكن بصورة كاملة وقاطعة، إذ استمرَّت بعض جماعات من المسيحيين من أصل

٢- انظر: لوقا ١٩:٢٢ ؛ ١ كورنثوس ١١:٢٤-٢٦

٣- انظر: أعمال ٤٢:٢

٤- إغناطيوس أفرام الثَّاني، البطريرك السَّرياني الأنطاكي، المباحث الجليَّة في الليترجيات الشَّرقيَّة والغربيَّة، دير الشَّرفة، الجزء الأوَّل، ١٩٢٤م، ص

١٢٩، ١٢٨

٥- ١ كورنثوس ١٦:٢

٦- انظر مثلاً: ديداخي ١:١٤ ؛ ورسالة برنابا ٩:١٥ ؛ ورسالة القديس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م) إلى مغنيسيا ١:٩-٢

7- Joseph de Baciocchi, *L'Eucharistie*, Belgium, Desclée, 1964, p. 26.

8- Cf. *First Apology*, 67.

٩- انظر مثلاً: كتابه المتفرَّقات (١٢:٧).

١٠- في الصَّلَاة (١:٢٣-٢).

يهودي غير قادرة على الاستغناء كُليّة عن مراعاة تكريم يوم السَّبْت، يوم الرَّاحة القديم، متمسّكين بشريعة السَّبْت^(١١)، بينما تحرّرها منها كثيرٌ من المسيحيّين من أصلٍ أُمّي، معتبرين السَّبْت رمزاً ليوم الأحد فحسب. ونعرف من القدّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م) أنه قد شاع الاحتفال بتقدّيس يوم الأحد فقط، حتى بين الكثير من المسيحيّين من أصلٍ يهودي، الذين لم يتمسّكوا بتكريم يوم السَّبْت^(١٢).

وجدير بالذكر أنه مع نهايات القرن الثّاني الميلادي، ظهرت القدّاسات^(١٣) التي تُقام عند قبور الشّهداء في الكنائس الصّغيرة Oratories الملحقّة بقبورهم تكريماً لهم في ذكرى انتصارهم^(١٤).

أمّا في كنيسة شمال إفريقيا على وجه التّحديد، والتي تتبّع التّقليد الغربي، فيلّي جانب الإفخارستيا التي تُقام في يومي الأحد والسَّبْت^(١٥)، كانت تُقام إفخارستيا أيضاً في يومي الأربعاء والجمعة من كلّ أسبوع في زمن العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)^(١٥)، كما شاعت أيضاً إقامة إفخارستيا يوميةً بحسب ما يشير القدّيس كبريانوس الشّهيد (٢٥٨م)^(١٦).

في القرون الثّالث والرّابع والخامس للميلاد

في هذه القرون الثلاثة - وربما جانب من القرن السّادس الميلادي أيضاً - نجد عودة غريبة إلى الاهتمام بالسَّبْت والاحتفال به بإقامة الإفخارستيا فيه مثل يوم الأحد. فنعرف من العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في القرن الثّالث الميلادي أنّ إقامة السّر الإفخارستي كان يوم الأحد من كلّ أسبوع^(١٧)، إلى جانب يوم السَّبْت أيضاً^(١٨).

أمّا كتاب "الدّسقولية أي تعاليم الرّسل" - وهو التّرجمة العربيّة لكُتب المراسيم الرّسوليّة التي تمّ تأليفها في القرن الرّابع الميلادي، والتي تمثّل طقس ضواحي أنطاكية - فحين يتحدّث عن إقامة الإفخارستيا في يوم الأحد، لم يغفل الحديث عن إقامتها في يوم السَّبْت أيضاً (٢:٢-٣؛ ١٠:٥٣-٥٤؛ ٣٦:١٩)، كعيديّن أسبوعيّين يقام فيهما السّر الإفخارستي. ففي الأوّل - أي السَّبْت - يكون الاجتماع تذكّاراً لتدبير الخليقة، وفي الثّاني - أي الأحد - يكون تذكّاراً لتدبير الفداء وتحقيق القيامة.

ونعرف من القانون رقم ١٦ لمجمع اللاذقيّة المكياني (٣٤٣-٣٨١م) والتّعليق عليه من علماء القانون الكنسي، أنّ الشّرقيين كانوا يحفظون السَّبْت في إقامة السّر الإفخارستي كما يحفظون يوم الرّب تماماً، باستثناء واحد هو عدم الانقطاع عن العمل في يوم السَّبْت^(١٩).

أمّا في مصر، وبحسب الطّقس الكاتدرائي، أي طقس كنائس المذنب، فنعرف من سيرة البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) أنه كان يصير تحضير للشّركة استعداداً لإقامة السّر الإفخارستي بالسّهر طوال اللّيل ليومي السَّبْت

١١- نقرأ في أحد الأناجيل المزوّرة وهو "إنجيل توما"، وهو من مدوّنات القرن الثّاني الميلادي: "يقول يسوع: من لا يصوم عن العالم لن يجد ملكوت الله. وإن لم تحتفلوا بيوم السَّبْت فلن تشاهدوا الآب" (إنجيل توما ٢٧).

١٢- الرّسالة إلى مغنيسيا ٩:١-٢

١٣- تسمية السّر الإفخارستي باسم "القدّاس" هي تسمية لم تكن معروفة في كنيسة الإسكندريّة خلال الألف سنة الأولى للميلاد. وحاليّاً لا يشترك في هذا الاسم سوى الكنيستين القبطيّة والآشوريّة (النّسطوريّة). انظر للمؤلّف محاضرة بعنوان: مُسمّيات سرّ الشّكر.

14- Cf. H. Delehaye, *Les origines du culte des martyrs* (Subsidia hagiographica 20, Brussels: Société des Bollandistes, 1933 2) 31 ff.

١٥- في الصّلاة (١٩).

16- Cyprian, *Treatise On The Lord's Prayer* IV, 18.

١٧- انظر مثلاً: عظة على سفر الخروج (٥:٧).

١٨- عظة على سفر العدد (٤:٢٣).

١٩- أرشمنديت حنانيا كسّاب، مجموعة الشّرع الكنسي، منشورات الثّور، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٠٦

والأحد^(٢٠). وهو نفس ما نجده في إجابة السؤال (١٣) من الإجابات القانونية للبطيريك الإسكندري تيموثاوس الأول (٣٧٩-٣٨٥م)^(٢١). وقد امتدت هذه العادة لتغطّي القرن الخامس، وربما جانباً من السادس للميلاد أيضاً؟ فنعرف من القانون (٩٣) من قوانين البابا أناسيوس الثاني بطيريك الإسكندرية الـ ٢٨ (٤٨٩-٤٩٦م) في نهاية القرن الخامس الميلادي، يقول: ”لا يكسل أحد من الكهنة والمسيحيين عن القدّاسات في السبّت والأحد. ومن بعد ما يسرّحوا القدّاس، فليهتم كلُّ واحد بشغل يديه“ (انظر أيضاً القانون ٤٩).

ولم تكن إقامة السرّ الإفخارستي يومي السبّت والأحد في هذه الفترة قاصرة على كنائس المذنب فحسب، بل قد نهجت الأديرة القبطية أيضاً في مصر نفس هذا النهج. وهو ما سأشرحه تفصيلاً عند الحديث عن الإفخارستيا الديرية.

إن السياق المتسلسل والسابق شرّحه عن إقامة الإفخارستيا في يومي السبّت والأحد، يعترضه أمران؛ الأمر الأول، لدينا شواهد من كنيسة الإسكندرية تثبت وجود إقامة إفخارستيا يومية في القرن الخامس الميلادي، وهو ما سوف نناقشه تحت عنوان: ”إقامة الإفخارستيا اليومية في الشرق والغرب“.

الأمر الثاني، لدينا شواهد من كنيسة الإسكندرية وروما تثبت إقامة إفخارستيا يوم الأحد فقط في كلّ منهما، وليس في يومي السبّت والأحد. وهو ما ورد في بحث قدّمه العالم الليتورجي الأمريكي الأب روبرت فرانسيس تافت (١٩٣٢-٢٠١٨م)^(٢٢) بعنوان: ”تواتر *The Frequency* الاحتفال الإفخارستي عبر التاريخ“^(٢٣) ونشره في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ٢٠٠٠م، يقول فيه: ”إنه مع حلول القرن الرابع الميلادي، أصبح ليوم السبّت احتفال إفخارستي في كلّ مكان مثل يوم الأحد، فيما عدا روما والإسكندرية^(٢٤)، لأننا نعرف من القدّيس أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)^(٢٥)، وأيضاً من المؤرّخ سقراط (٣٨٠-٤٥٠م)، أنّ الإفخارستيا تُقام في الإسكندرية في يوم الأحد من كلّ أسبوع“، مستشهداً بقول المؤرّخ الكنسي سقراط (٣٨٠-٤٥٠م) الذي يقول: ”بينما تحتفل سائر الكنائس في سائر أرجاء العالم تقريباً بالسرّات المقدّسة يوم السبّت من كلّ أسبوع، إلّا أنّ كنيسة الإسكندرية وكنيسة روما كفتا عن ذلك طبقاً لتقليد ما قديم“^(٢٦).

وهنا جاء حُكم الأب روبرت تافت غير دقيق في هذه الجزئية من بحثه، إذ سقطت منه شواهد وثائقية أخرى تؤيد إقامة السرّ الإفخارستي يوم السبّت في زمن البابا أناسيوس الرسولي، كما سبق أن ذكرتُ منذ قليل.

20. *History of the Arians*, 81, *NPNF.*, 2nd series, vol. IV ; *Defense Before Constantius*, 25, *NPNF.*, 2nd series, vol. IV.

21. *PG.*, 33, 1305. *On the spread of eucharistic frequency in the Egyptian tradition* see H. Quecke, *Untersuchungen zum koptischen Stundengebet* (Publications de l'Institut orientaliste de Louvain 3, Louvain: Université catholique de Louvain, 1970) 9, n. 52. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 80-81.

انظر أيضاً للمؤلف، كتاب الملامح الوثائقية والليتورجية لكنيسة الإسكندرية في الثلاثة قرون الأولى، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص ٣٦٥
٢٢- الأب روبرت فرانسيس تافت Robert Francis Taft (١٩٣٢-٢٠١٨م) تنبّح في ٢ نوفمبر من العام الماضي عن عمر يناهز الستة والثمانين عاماً. وهو عالم ليتورجي أمريكي شهير تخصص في التقاليد الليتورجية الشرقية، وخدم ككاهن في الرهبنة اليسوعية، وهو أرشمندريت في كنيسة الروم الكاثوليك الروسية، وهي واحدة من ٢٣ كنيسة شرقية كاثوليكية. وعمل مديراً للدورية الشهيرة المعروفة باسم ”دورية الشرق المسيحي“ *Orientalia Christiana Periodica* خلال الفترة (١٩٧٢-١٩٧٦م)، ودرّس في المعهد الشرقي البابوي في روما خلال الفترة (١٩٧٠-١٩٧٥م)، ثمّ أستاذاً بنفس المعهد خلال الفترة (١٩٧٥-٢٠١١م)، وبعد أن غادر روما سنة ٢٠١١م، عمل أستاذاً زائراً في جامعة نوتردام بالولايات المتحدة الأمريكية. وله حوالي ٨٠٠ بحث ليتورجي، بالإضافة إلى كتبه القيمة والتي من أهمها كتابه: *The Liturgy of the Hours in East and West* ”ليتورجية السّواعي في الشرق والغرب“، سنة ١٩٨٦م.

23. Cf. Robert F. Taft, S.J., *The Frequency of the celebration of the Eucharist Throughout History*, in: *Between Memory and Hope*, edited by Maxwell E. Johnson, USA., 2000, p. 77-96.

24. Willy Rordorf, Sunday: *The History of the Day of Rest and Worship in the Earliest Centuries of the Christian Church*, London, 1968, p. 142-153. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 79.

25. Athanasius, *Apol. contra Arianos* 11.

وهنا تقابلنا صعوبة جمّة، إذ كيف يمكننا أن نوفّق بين ما يقوله سقراط المؤرّخ، وبين ما سبقه من شواهد كثيرة تخالف شهادته؟ ولاسيّما أن قوانين البابا أناسيوس الثاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريك الإسكندريّة في نهاية القرن الخامس الميلادي لا تتوافق مع شهادة سقراط.

لقد حاول العالم الإيطالي موسنا C.S. Mosna أن يفك طلاسم هذا اللغز المحيّر، فيقول^(٢٧) إنه كان هناك نظامان للاحتفال بالإفخارستيا في مصر، مختلفان عن بعضهما. وهما نظام مدينة الإسكندريّة، ونظام باقي مُدُن مصر الأخرى. فالإسكندريّة لم تكن تحتفل بالإفخارستيا سوى في يوم الأحد فقط، بينما باقي بلاد القطر المصري - باستثناء بعض المناطق المجاورة للإسكندريّة - كانت تحتفل بالإفخارستيا في يومي السبّت والأحد. وعن هذا النظام الأخير أشارت قوانين البابا أناسيوس، والتي هي بالتأكيد ذات أصل مصري، وهذا يكفيننا. لأنّها إن كانت تعود إلى رئيس الأساقفة العظيم هذا^(٢٨)، فقد صار يلزم أن تُفسّر على أنّها قوانين تتكلّم عن كل القطر المصري، لا أن تركز اهتمامها على تلك المدينة الأسقفية فحسب^(٢٩).

إلى هنا ينتهي رد العالم موسنا.

لقد لاقى تيار الرجوع إلى تكريم يوم السبّت، مقاومة عنيفة من بعض آباء الكنيسة في تلك الحقبة، سواء في الشّرق - وإن كان بقدر ضئيل - أو في الغرب على وجه الخصوص.

فالقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) يقول:

[لا ترتد إلى اليهوديّة، لأنّ المسيح قد حرّك نهائياً. امتنع عن كل ممارسة للسبوت ...]^(٣٠).

أمّا في الغرب، فإنّ يوم السبّت لا يُراعى إطلاقاً كيوم راحة قديم. فيقول القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م):
[إمّا أن نكون مسيحيين فنحفظ يوم الأحد، أو نكون يهوداً فنحفظ السبّت]^(٣١).

ذلك لأنّ السبّت مثل الختان وغيره من العوائد والطّقوس اليهوديّة التي انتهت وبطلت. بل تهادى الغرب في عدم اعتبار يوم السبّت كيوم تذكّار لراحة الله في القديم، فلم يمنع إقامة الإفخارستيا فيه فحسب، بل وجعله أيضاً يوم صوم في فترة الصّوم المقدّس الكبير، تذكّاراً لموت المسيح وراحته في القبر^(٣٢). من هذا نفهم لماذا وضع مجمع ترولو سنة ٦٩٢م قانونه رقم (٥٥) الذي يقول: "إذ قد فهمنا أنّهم في مدينة روما يصومون في الصّوم الكبير أيام السبوت خلافاً للترتيب الكنسي التقليدي، فقد لاح للمجمع أنه يجب أن يراعى هذا القانون في روما، وهو أنّ كلّ من وُجد صائماً يوم أحد أو يوم سبت - ما عدا السبّت الواحد الكبير - فليُسقط إن كان إكليريكياً، وليُقطع إن كان عامياً".

إقامة الإفخارستيا في بعض مناطق الشّرق المسيحي في يومي الأربعاء والجمعة

خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد؛

٢٧- وذلك في كتابه بالإيطاليّة: "تاريخ يوم الأحد من البداية حتى نهاية القرن الخامس الميلادي".

C.S. Mosna, *Storia della Domenica dalle origini fino agli inizi del V secolo*, Rome, 1969, p. 235-284.

٢٨- يقصد البابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م) البطريرك العشرون. ولقد أثبت أنّ واضع هذه القوانين هو البابا البطريرك الثّامن والعشرون، والمعروف باسم أناسيوس الصّغير (٤٨٩-٤٩٦م).
وفي ذلك انظر كتاب: "قوانين البابا أناسيوس بطريك الإسكندريّة"، للمؤلّف.

29- Ugo Zanetti, *Les lectionnaires coptes annuels, basse Egypte*, Louvain, 1985, p. 136.

30- *Catechetical Lecture IV*, 37, in *NPNF.*, Series II, vol. VII.

31- William Smith and Samuel Cheetham, *A Dictionary of Christian Antiquities*, volume 2, London, 1880, p. 1825-1826.

32- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 191.

- ظَلَّتْ كَنائِسُ الإسْكَندَرِيَّةِ (٣٣) والقُسْطَنْطِينِيَّةِ ومَعْظَمُ آسِيَا الصُّغْرَى (٣٤) وشَمَالُ سوريَا أي ضواحي أنطاكية (٣٥)، تحْفَظُ إقَامَةَ الإفخارستِيَا في يَوْمِي السَّبْتِ والأَحَدِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ إِلَى جَانِبِ الأَعْيَادِ الكَنسِيَّةِ المَعْرُوفَةِ آنَئذٍ.
- أَمَّا كَنِيسَةُ أُورْشَلِيمَ (٣٦) وَكَنِيسَةُ قَبْرِصَ (٣٧) فَقد أَضَافَتْ يَوْمِي الأَرْبَعَاءِ وَالجُمُعَةَ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ خَارِجاً عَنِ الصَّوْمِ الكَبِيرِ لإقَامَةِ الإفخارستِيَا، إِلَى جَانِبِ يَوْمِ الأَحَدِ.
- أَمَّا كَنائِسُ جَبالَا (٣٨) وَجَزءٌ مِنْ آسِيَا الصُّغْرَى (٣٩)، وَالسَّرِّيَانِ المِشَارِقَةَ (٤٠) فَقد أَضَافَتْ يَوْمِي الأَرْبَعَاءِ وَالجُمُعَةَ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ خَارِجاً عَنِ الصَّوْمِ الكَبِيرِ لإقَامَةِ الإفخارستِيَا، إِلَى جَانِبِ يَوْمِي السَّبْتِ وَالأَحَدِ.
- أَمَّا كَنِيسَةُ أنطاكية نَفْسِهَا (٤١) فَقد أَضَافَتْ يَوْمَ الجُمُعَةَ فَقَطْ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ إِلَى جَانِبِ يَوْمِي السَّبْتِ وَالأَحَدِ.
- وَهناك كَنِيسَةُ فِي إِحْدَى المِنَاطِقِ النَّائِيَةِ لِسِوَا حِلِّ البَحْرِ الأَبْيَضِ المَتَوَسِّطِ النَّاطِقَةَ بِاللُّغَةِ السَّرِّيَانِيَّةِ تُقِيمُ الإفخارستِيَا فِي يَوْمِي السَّبْتِ وَالأَحَدِ وَأَيَّامِ الصَّوْمِ (٤٢).

إقامة الإفخارستيا اليومية في كل من الشرق والغرب

مع حلول نهاية القرن الرابع الميلادي، هناك أدلة واضحة على وجود الإفخارستيا اليومية في الغرب المسيحي، في كل من ميلان، أكويليا، إسبانيا، وشمال إفريقيا (٤٣). أما الشرق المسيحي فلم يكن يعرف هذه الإفخارستيا اليومية، وهو ما يُخبرنا به القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) (٤٤)، إلا أننا نجد بعض الشواهد تثبت إقامة الإفخارستيا اليومية

٣٣- كما سبق أن شرحت منذ بداية هذه المحاضرة.

٣٤- وهو ما يشهد به ذهبي الفم نفسه بخصوص الممارسة في القسطنطينية وآسيا الصغرى.

F. van de Paverd, *Zur Geschichte der Messliturgie in Antiocheia und Konstantinopel gegen Ende des vierten Jahrhunderts* (OCA 187, Rome, PIO, 1970), p. 422-424. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 82.

٣٥- وهو ما تذكره المراسيم الرسولية (حوالي ٣٨٠م) التي تمثل طقس ضواحي أنطاكية (٢:٣٦:٢)، (٣:٢٣:٦)، (٢:٣٣:٨).

٣٦- كنيسة أورشليم تمارس الطقس الهاجيوبوليتي Hagipolite usage أي طقس المدينة المقدسة أورشليم. وهو ما نعرفه عن الطقس الكاتدرائي في أورشليم بحسب ما نخبرنا به السائحة الإسبانية الإنجليزية (٣٨٤م).

وجدير بالذكر أن كنيسة أورشليم كانت تقيم الإفخارستيا يوم السبت من كل أسبوع أثناء الصوم المقدس الكبير.

P. Maraval, (ed.), *Egérie, dans Journal de voyage* (SC., 296), Paris, 1982, p. 256 ff. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 81.

٣٧- وهو ما نخبرنا به إبيفانيوس أسقف سلاميس بجزيرة قبرص (٤٠٣م) حوالي سنة ٣٧٧م (PG., 42, 825).

Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 81.

٣٨- وهو ما نخبرنا به سفرين أسقف جبالا Severian of Gabala (٤٠٨م).

و"جبالا" هي مدينة في شمال أذربيجان وكانت جزءاً من تركيا، وهي تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقية وآسيا الغربية، ويحدها بحر قزوين إلى الشرق، وروسيا من الشمال، وجورجيا إلى الشمال الغربي، وأرمينيا إلى الغرب، وإيران في الجنوب.

J. B. Aucher (ed.), *Severiani Sivi Seberiani Gabalorum Episcopi Emensis Homiliae* (Venice: Mechitarists, 1827), p. 187. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 81.

٣٩- وهو ما يشهد به القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أسقف قيصرية كبادوكيا - وهو الاسم التاريخي لإقليم في آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) - في رسالته رقم (٩٣) حيث يذكر أنه يتناول أيام الأربعاء والجمعة والسبت والأحد من كل أسبوع، إلى جانب تذكارات القديسين.

٤٠- وهو ما نعرفه من خطاب لماروطة أسقف ميفرقين، حوالي سنة ٤٠٠م، ومن مصادر أخرى فيما بين التهرين.

F. van de Paverd, *op. cit.*, p. 67 n. 2. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 82.

٤١- وهو ما يشهد به القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) قبل سنة ٣٩٧م.

F. van de Paverd, *op. cit.*, p. 61-79. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 82.

42- Ed. I. E. Rahmani (Mainz: F. Kirchheim, 1899) p. 34-35. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 81.

وهو ما نخبرنا به كتاب عهد الرب *Testamentum Domini* (١: ٢٢) - وهو من المصادر السريانية في القرن الخامس الميلادي لهذه المناطق النائية الناطقة بالسريانية.

43- Cf. Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 79.

44- *De Serm. In Monte* (loc. cit.) ; Cf. *Ep. 54, CSEL 34*, p. 161. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 80.

في كنيسة الإسكندرية في القرن الخامس الميلادي.

فيقول الأب روبرت تافت في مقاله السابق ذكره: ”الدلائل على إقامة هذه الإفخارستيا اليومية في الشرق، هي أكثر تفاوتاً، وليس من الواضح دائماً إلى أي نوع من الليتورجيا تشير“^(٤٥).

وعندما ينتقل الأب روبرت تافت للحديث عن كنيسة الإسكندرية، يشير إلى تفسير القديس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) للإصحاح الثاني من إنجيل القديس لوقا (١٥:٢) بخصوص بشارة الملاك للرعاة بميلاد المسيح ثم ذهب الرعاة إلى بيت لحم، وهو النص الذي يقول فيه القديس كيرلس عامود الدين:

[... حيث أن بيت لحم تفسرها بيت الخبز، فيلبي أين كان الرعاة عتيدين أن يسرعوا إلا إلى البيت الروحي الذي للخبز السماوي، أعني الكنيسة التي فيها يُقدّم بطريقة سرية كل يوم، الخبز النازل من السماء والواهب حياة للعالم]^(٤٦).

وهذا الشاهد يوضّح وجود إفخارستيا يومية في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. وأما ما يُثبت امتداد هذا التقليد ليغطي النصف الثاني من نفس هذا القرن، فهو ما نقرأه في القانون رقم (١٤) من قوانين البابا أناسيوس الثاني (٤٨٩-٤٩٦م)، والذي يقول: ”أسقف يُبطل القداس في كل يوم بغير مرض، يموت بجزن قلب“.

خلال القرون من السابع إلى التاسع للميلاد

لقد ظلّ حفظ يوم السبت كيوم للراحة، ممتداً في بعض الجهات حتى إلى القرن السابع الميلادي. فيكتب البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) ويقول: ”بلغني أن بعض الرجال ذوي الرُوح الفاسدة، قد زرعوا بينكم أموراً سيئة ومضادة للإيمان المقدس، بحيث أنهم حرّموا عمل أي شيء يوم السبت. فلا أسميهم إلا واعظي المسيح الدجال، لأن المسيح الدجال عندما يأتي، سيفرض الامتناع عن كل عمل يوم السبت ويوم الرب... إذا نحن نقبل روحياً ما كتب في السبت ونحفظه روحياً. فالسبت يُدعى الراحة، أما سبتنا الحقيقي فهو مخلصنا الرب يسوع المسيح“^(٤٧).

وأما في كنيسة مصر، فإن كان قد أمكننا تتبع إقامة الإفخارستيا في مصر في يوم السبت حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، وربما أوائل السادس الميلادي أيضاً، إلا أن إهماماً وعموضاً شديدتين يكتنفان مواصلة البحث في هذا الموضوع في القرون التالية، ولاسيما في الفترة ما بين القرن السابع وحتى القرن التاسع للميلاد، وهي الفترة التي أعقبت دخول العرب مصر.

والمفاجأة الكبرى التي نفاجاً بها، هي أننا لا نجد ولو إشارة واحدة لإقامة السر الإفخارستي في يوم السبت في الكتابات القبطية التي تغطي القرون من السادس حتى التاسع للميلاد^(٤٨).

وبفحص عدد كبير من القطمارُسات القبطية والعربية المخطوطة، والمحفوظة في مكتبات ومتاحف العالم، ولاسيما تلك التي تُسمى ”قطمارُس السبوت والآحاد“، والتي تحوي قراءات للسبوت والآحاد جنباً إلى جنب، يتضح أن هذه القطمارُسات التي تحوي قراءات السبت سابقة مباشرة على قراءة الأحد الذي يليه، هي قطمارُسات مخطوطة بالقبطية

برغم اعتراف القديس أغسطينوس بأن القُداسات اليومية لم تكن معروفة في الشرق، وهو ما يقوله الأب روبرت تافت نفسه، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله: ”هذا لا يعني أن إقامة الإفخارستيا اليومية كانت ظاهرة غريبة فقط“! بدون إيراده لدليل واحد على ذلك.

45- Cf. Robert F. Taft, S.J., *op. cit.*, p. 80.

46- PG., 72, 489.

٤٧- غريغوريوس الكبير: رسالة ١:١٣

٤٨- وأعني بها تحديداً الكتابات القبطية البحتة، وليس الكتابات القبطية المترجمة عن أصول يونانية.

البحيرية واللغة العربية، وأن أقدمها لا يعود لما قبل سنة ١٠٠٠م^(٤٩).

وفي القرن التاسع الميلادي، تُقرّر قوانين المجامع الكنسية البيزنطية Byzantine Toros synodikos decrees أن الكاهن يجب أن يُقدّس مرّة واحدة في اليوم وليس أكثر. وهذه علامة مؤكّدة على وجود ممارسة خاطئة بهذا الخصوص. ويشير توماس ماثيوس إلى وجود عدّة كنائس صغيرة Chapels إيفخارستية في الكنائس البيزنطية في العصور الوسطى والمتأخّرة، ربما للمواءمة بين تعدّد مرّات إقامة الإيفخارستيا، وفي ذات الوقت منع إقامة أكثر من قدّاس واحد في اليوم على المذبح الواحد^(٥٠).

في حدود القرن العاشر الميلادي فصاعداً

إنّ جننا إلى القرن العاشر الميلادي، يظهر لنا من جديد عادة إقامة القدّاسات يوم السبّت طيلة أيام السنّة لاسيّما في الصّوم المقدّس الكبير في كنيسة الإسكندرية. فيقول الأنبا ساويرس بن المقفّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م): "السبّت شبه يوم الأحد في البركة والتّقدّيس. والواجب على الإنسان أن يجتهد في تناول القربان فيه كلّ الأزمان مثل يوم الأحد، ولاسيّما في الصّوم الكبير الذي صامه ربّنا عنّا، وذلك أنّ الله باركه وقدّسه قبل يوم الأحد... فيوم السبّت يوم بركة وتقدّيس مع الزّمان، فيلزم جميع المؤمنين الرّجال والنساء أن يجتهدوا على تناول القربان فيه، وأن يحفظوا نفوسهم فيه مثل يوم الأحد"^(٥١).

وأما في الكنيسة البيزنطية، وفي حدود القرن العاشر الميلادي، فقد أعطانا كتاب التّيبكون صورة كاملة عن الليتورجيا الكاتدرائية للكنيسة العظمى في القسطنطينية^(٥٢). فالإيفخارستيا يُحتفل بها أيام السبّوت والآحاد على مدار العام، ويوميّاً من عيد القيامة إلى أحد العنصرة، وفي الأعياد السيديّة، وفي بعض تذكارات العذراء والقديسين^(٥٣).

وبحسب التّاريخ الموجز للرّاهب جيورجوس سيدرنيوس^(٥٤) *Cedrenus' Historiarum Compendium* عيّن الإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٥م) في سنة ١٠٤٤م ميزانية لإقامة الإيفخارستيا في كاتدرائية آجيا صوفيا يوميّاً وليس فقط في أيام السبّت والأحد كما كانت العادة^(٥٥). أي أنّ الإيفخارستيا اليومية عُرفت في معظم كنائس الشّرق بدءاً من كنيسة آجيا صوفيا بالقسطنطينية في بداية الألفية الثانية للميلاد.

والسؤال المطروح للبحث هو: هل عرفت كنيسة الإسكندرية هذه الممارسة في القرن الخامس الميلادي فقط كحالة استثنائية، أم امتدّت فيها بانتظام حتى نهاية الألفية الأولى للميلاد؟

ذلك لأنّ قوانين هيبوليتس وهي قوانين مصرية وُضعت في أوائل القرن السادس الميلادي، لا ذكر فيها لإقامة

49- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 139, 289.

50- Private Liturgy in Byzantine Architecture: Toward a Re-appraisal, *Cahiers archéologiques* 30 (1982) 125-38. The prohibition has existed since at least the 5th century. Leo the Great refers to it when writing to Dioscorus of Alexandria on June 21, 445 (*Ep. 9, PL 54, 626-27*). It was in force in some Western Churches too: see canon 10 of the Council of Auxerre (578), Mansi 9, 913. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 84.

٥١ - أنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدرّ الثمين في إيضاح الدّين، إصدار مدارس التربية الكنسية بكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بطوسون - شبرا، ١٩٨٧م، ص ١٨٠
52- J. Mateos (ed.), *Le Typicon de la Grande Eglise (OCA 165-66, Rome: PIO, 1962-1963)*, II, p. 302. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 83.

53- Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 83.

٥٤ - كتب الرّاهب جيورجوس سيدرنيوس تاريخه الموجز تحت عنوان: Σύνοψις ἱστοριῶν: إمّا في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل الثّاني عشر للميلاد، ويجوي الفترة منذ بدء الخليقة حتى جلوس الإمبراطور إسحق الأوّل على العرش سنة ١٠٥٧م.

55- I. Bekker (ed.), *Georgius Cedrenus*, 2 vols. (Bonn 1838-1839) II, 609 = PG 122, 340. Cf. Ioannes Skylitzes, *Synopsis historiarum*, ed. I. Thurn (Berlin-New York, 1973) 477. Cited by Robert F. Taft, *op. cit.*, p. 83-84.

الإفخارستيا كل يوم. حيث نقرأ في (القانون ٢١) ما يلي: ”يجتمع القسوس كل يوم في الكنيسة، وأيضاً الشماسية، والإبيودياكونون، والأغنسطسون، وكل الشعب، عندما يصيح الديك. ويصنعون الصلاة والمزامير وقراءة الكتب والصلوات، كوصية الرسول القائل: «التفت إلى القراءة إلى أن أحضر. والذي يتأخر من الإكليروس من غير مرض، ولا سفر، فليُفَرَّق».

وتعبير ”ولا سفر“ ورد في بعض المخطوطات، أمّا بعضها الآخر فأورده ”ولا يتغرب“، أي ولا يكون في غربة، وهو التعبير الذي نقله بعض النُسخ إلى ”ولا يتقرب“ أي لا يتناول، وهو تعبير بعيد كل البعد عن سياق نص القانون المذكور. ويؤكد ذلك نص القانون رقم (٢٧) الذي يقول: ”... وكل يوم لا يصلون في الكنيسة، فلتأخذ كتاباً وتقرأ ... إلخ“.

كما أنّ القوانين الكنسية المصرية المدونة في القرن السادس الميلادي، والمنسوبة للقديس باسيليوس الكبير، لا ذكر فيها لشيء من ذلك.